المحاضرة الثالثة: نشأة وتطور علم اجتماع الفن

أهداف المحاضرة 03

- **الكشف عن نشأة علم اجتماع الفن**
- **تحديد كيف تطور علم اجتماع الفن**

لماذا علم اجتماع الفن؟:

من تقاليد وأعراف علم الاجتماع البحثية والاستقصائية، والاهتمام بتطور المجتمع الإنساني وثقافته ومشكلاته الاجتماعية، كالجريمة والجنوح والانحراف والطلاق والحروب والكوارث والطبقات الاجتماعية وسواها، بيد أنّه لم يولِ أهمية تذكر إلى العطاء والإنتاج الفني والجمالي لشريحة المثقفين بل أهملها، ويرى عملها ما هو إلا ترفا يعكس الرفاهية واللهو في أوقات الفراغ.

إنما مع تطور المجتمعات من المرحلة الريفية وتحولها إلى المرحلة الحضرية والصناعية وبروز طراز بارز بجانب الحياة الحضرية يمثل جادة في طريق عيش أهل الحضر، وهي جمالية التأنق والتزويق والتركيز على المظاهر الخارجية في الملبس والهيئة المرئية للإنسان، وفي أثاث المنزل وطراز بنائه ونموذجه واستخدام هذه المظاهر الأنيقة والزاهية لعكس المستوى الاقتصادي ،والمكانة الطبقية والاجتماعية في المجتمع المحلي والعام، وبسبب طغيان المجهولية بين أبناء الحضر وعدم معرفة كل منهم لخلفية الآخر الاجتماعية والاقتصادية، وإزاء هذه الضبابية والاجتماعية، فإنّ المظهر الخارجي للحضري يشير إلى دلالات مالية وثقافية وذوقية وطبقية.

هذه الحالة لم تكن سائدة في المجتمع الريفي بسبب الحضور المعلوماتي بين الناس، إذ الكل يعرف الكل على خلفياته الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعرقية، ولأن الناس في الريف تكون حياتهم بعيدة عن التكلف والتظاهر والتأنق الفائق لأنّه يتعامل مع الآخرين من خلال خلفيته الاجتماعية (انتمائه القبلي أو المحلي، أو اسم عائلته وليس مظهره الخارجي) فضلا عن المواقع الحضرية في التنظيمات الديوانية.(البيروقراطية) تتطلب الجاذبية الخارجية في الملبس والتجميل والتأنق لكسب ود وثقة المراجعين والمقابلين له، بل تتطلب التأنق في اختيار العبارات

والكلمات الرقيقة والشفافة والجميلة واللطيفة، علاوة على التنوع والتبدل المتطلب من الحياة الحضرية، إذ يستلزم تبديل رونق وتصميم وتزويق أثاث المنزل وملابس الناس وديكورات المحلات بشكل دوري ومستمر، كأحد متطلبات الحياة الحضرية لكي تحيا وتنتعش من أجل استمرار بقائها في المدينة ومجاراة نشاطاتها المتنوعة والمختلفة.

نقول تتطلب الحياة الحضرية التبدل والتغير في تصاميم الملابس وألوانها وأشكالها من أجل مسايرة حركات الموضة، وتستلزم أيضا مجاراة ومسايرة تقلبات أمزجة الناس وأذواقهم الأمر الذّي يقتضي تبديل أثاث المنزل، وستائره وأغطيته بين الفينة والأخرى، وهذا يؤثر على ميزانية الأسرة ومصاريفها، كل ذلك من أجل أن يبقى محافظا (الفرد) على مكانته الاجتماعية بين الناس محتفظا باحترامهم له والنظر إليه نظرة محترمة، فيها شيء من الإعجاب والتقدير لذوقه ولمساته الجمالية، لأنّ مكانته الاجتماعية باتت مرتبطة بهذه المظاهر الخارجية.

بالإضافة إلى العمل المرهق والرتيب في الحياة اليومية الحضرية الذّي يقتضي الراحة واستخدام وسائل ترويحية ومسلية ولإرخاء أعصاب الإنسان المشدودة من قبل العمل والإجهاد والاضطراب النفسي، لذا فإنّ الحياة الحضرية تحتاج إلى تحديد الأوقات بشكل أسبوعي وشهري وفصلي وسنوي للترويح عن النفس والجسدي، كالرحلات أو الذهاب إلى دور السينما أو الأزياء أو زيارة المسارح أو صالات الموسيقى أو الرواقات الفنية أو سماع موسيقى من أشرطة الكاسيتات أو الذهاب إلى الأسواق المركزية للتبضع بما هو مطروح من موضات جديدة في الملابس أو الماكياج ، وباقي وسائل الأناقة الشّخصية والمنزلية، لما كان الناس يقبلون على اقتناء الطراز الجديدة في الملبس والمظهر والتزيين حيث تأسست وأنشأ في التأنق والتفنن والتسلية والراحة موسيقيا وتصويريا وتمثيليا وإشغاله بضروب الفن الحديثة، يمكن القول أنّ التطورات الفنية سبقت تغير وتقدم السلوكيات الاجتماعية والمجاملات الاجتماعية والآداب العامة، كما أنّ الفن يعد نتاجا فكريا وحسيا (معنويا) إلا أنّه سبق التقدم المادي في تركيبة الثقافة الاجتماعية، وهذا يخالف ما طرحه عالم الاجتماع الأمريكي الحديث (وليم أولبرت) في نظرية التخلف الثقافي التّي مفادها أنّ الجانب المادي للثقافة يتغير بشكل أسرع من تغير الجانب أو الجزء المعنوي لها.

بيد أننا نرى أنّ الفن يمثل الجانب المعنوي لكن مع ذلك فإنّه يتغير أسرع من الجانب

المادي للثقافة ويساعده على تطوير الابتكارات المادية، والتكنولوجية لتصنيع الثقافة الفنية، سينما، فيديو، مسلسلات، وتقنيات تصوير وإنارة وأشعة، ليزر وحاسوب (كمبيوتر) جميعها، دخلت في خدمة الفن لكي يحقق أهدافه الفنية.

نقول إنّ الأفكار الفنية المبدعة ساهمت في تطوير وسائل الفن التصويرية والصوتية والتمثيلية وهذا يعني الجانب المعنوي يتغير أسرع من الجانب المادي.

أي نقيض ما طرحه وليم أولبرت في موضوع التخلف الثقافي، بتعبير آخر يبنى التخلف الثقافي قائما إنما معادلته تختلف، أي أنّ الجانب المعنوي يتغير أسرع من الجانب المادي فيقولون التخلف الثقافي وهذه وجهة نظر في الموضوع.

لا من وجهة الفن في هذا المقام من أن الموسيقى والغناء المنصف بالعاطفة الدافئة والجياشة والتشرب أو الذّي بأنّ في مشاعره كقيمة غائبة حسب مفهوم (بيترم سروكن) فإنّ مثل هذه الحاجة التّي تقوم بها كل من الموسيقى والغناء لا تكون موجودة في مجتمعات تسودها قيما مادية أو مجتمعات صناعية متقدمة، وقياسا على ذلك فإنّ القيم الاجتماعية العربيّة التّي تؤكد على الحشمة والكرم قد أثرت على طراز الأزياء في الملبس وصور البناء (تصميم المنازل وهندستها)، فالغرف يجب أن تكون واسعة المساحة وأن تكون هناك غرف خاصة باستقبال الضيوف وأخرى لنومهم، فضلا عن مفاضلة العربي للملابس المحتشمة والمستورة وهذا يشير إلى أنّ المعتقدات الاجتماعية تؤثر على طرز الأبنية والتنظيمات الاجتماعية في الأوجه المادية للثقافة وبالوقت ذاته فإنّ الأفكار الأخلاقية والجمالية تتحول إلى مبادئ اجتماعية في أشكال البناء (الريادة المعمارية) والموسيقى والفن والأدب.

– **رواد الفن:** مصطلح يستخدم بصورة خاصة، لوصف الفنانين الذين يركزون في ميادين الفنون الجميلة على الأساليب التجريبية والمبتكرة ويعارضون الطرق المتعارف عليها في صنع الأشياء، ويهاجمون في بعض الأحيان المواقف السابقة والراهنة حيال الفن، وحتى فكرة الفن نفسه.

ففي بداية القرن العشرين مثلا؛ صنع الرسام الفرنسي مارسيل دوشام تماثيل من الأشياء العادية للسخرية من الاعتقاد القائل أن الفن شيء صعب الفهم.

وكان مصطلح الرواد في الأصل مصطلحا عسكريا فرنسيا، يعني وحدة متقدمة تسبق الجزء المركزي من الجنود، وقد استخدمه الزعيم الاشتراكي الفرنسي هنري دي سان سيمون بمعناه العصري لأول مرة في كتاب نشر في عام 1825.

وفي القرن التاسع عشر الميلادي استخدم معظم الفن الريادي لدعم الإصلاح الاجتماعي، ولكن في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ركز مذهب الفن للفن بصورة متزايدة على شكل الفن ذاته دون اعتبار لتأثيره على المجتمع.

أصبحت المثل الريادية ذات أهمية وبخاصة في الفن في أواسط القرن العشرين، وقد نجح هذا الفن في توحيد الأشكال الفنية المتميزة من فن العمارة، والموسيقى، والتصوير الزيتي، والنحت، والمسرح، والسينما.